مطالعة في حياة وأعمال إريك فروم

الشجاعة.. لتكون إنساناً

راينر فانك Rainer Funk [*]

كثيراً ما يشار إلى إريك فروم كأحد أكثر المحللين النفسيين تأثيراً وشعبية في أميركا. فمن بين كل علماء النفس الذين حاولوا أن يَصُوغوا نظاماً أكثر ملاءمة من نظام فرويد للتعامل مع حياتنا المعاصرة، لا يوجد من كان أكثر منه إنتاجية أو أوسع تأثيراً. حتى لقد كان على جون هومر تشار ـ وهو أحد أعتى نقاد فروم ـ أن يعترف أن كتابات فروم تبرز اسمه في أي نقاش جاد حول المشاكل الإجتماعية الحديثة.

هنا مقالة تحليلية لحياة فروم والتحولات الفكرية التي عاشها على امتداد أكثر من نصف قرن.

«المحرر»

إن تزايد عدد الأطروحات الجامعية التي تدور حول فروم لهي شهادة على النقاش العلمي المستمر حول أفكاره واكتشافاته. إذ ينحدر مؤلفو هذه الأطروحات من خلفيات علمية مختلفة، وكلهم مهتمون بتحديد أهمية آراء فروم في حقول تخصصهم، في حين ان هذا المجال الواسع من الإهتمام يعكس سعة الآفاق التي تعاملت معها كتابات وآراء فروم.

قبل أن نلخص نتاج فروم الأدبي علينا أن نرسم صورة مقتضبة عن حياته وسوابقه الفكرية. ولد إريك فروم في فرانكفورت آم ماين في 23 آذار 1900 حيث كان الولد الوحيد لوالدين من اليهود الأرثوذوكس. وصف فروم والديه بأنهما يعانيان من حالة شديدة من العصاب كما أشار إلى نفسه بأنه ربما كان ولداً عصابيّاً لا يطاق بدوره. كان

---

*ـ فيلسوف ولاهوتي ألماني ـ متخصص بفكر إريك فروم.

ـ ترجمة: ر. طوقان.

العنوان الاصلي للنص بالانكليزية Erich Fromm's Life and Work

From the Book "Erich Fromm: The Courage to Be Human"_ Rainer Funk

للدين اليهودي الذي يمارسه والدا فروم ـ حيث كان أبوه ينحدر من سلالة قديمة من الحاخامات ـ والذي مارسه فروم نفسه حتى السادسة والعشرين من عمره، أثرعميق عليه. درس فروم العهد القديم بشكل مكثف حيث أعجب بشكل خاص بالأنبياء إشعيا وعاموس يشوع لأنهم وعدوا بالسلام الشامل للعالم ثم درس في شبابه التلمود على أيد الحاخام جاي هوروفيتز وبعد ذلك في أيام دراسته الجامعية تلقى المزيد من التعليم على أيدي سلمان رابينكوف في هيدلبرغ ونحميا نوبل ولودفيغ كراوس في فرانكفورت وكان تأثير هؤلاء المعلمين عليه عظيماً: فقد كان لرابينكوف توجه إشتراكي أما نوبل فكان توجهه صوفيّاً وروحانيّاً وكانت هذه التوجهات كلها حاضرة كمواضيع لكتابات فروم ومجالات اهتمامه.

كانت حادثة انتحار صديقة للعائلة تبلغ العشرين من عمرها ـ والتي كان سبب انتحارها رغبتها في أن تدفن بجانب أبيها المتوفى حديثاً والذي كانت تكن له حبّاً مفرطاً ـ هي التي ذكر فروم أنها تجربة طفولته التي دفعته إلى الاهتمام بسيغموند فرويد والتحليل النفسي. كذلك ربما توجد علاقة بين هذه الحادثة التي حصلت حين كان فروم في الثانية عشرة من عمره وعملية إعادة التفسير التي أجراها لعقدة أوديب، وكذلك لشكِّه العميق في جميع العلاقات غير العقلانية والتكافلية القائمة على الاتكالية، وكذلك أطروحته القائلة بوجود مشروعين ممكنين للحياة: المشروع البيوفيلي (biophilous) أو المنتج المحب للحياة، والمشروع النيكروفيلي (necrophilous) أو غير المنتج والكاره للحياة.

لكن تعاطف فروم مع الأنبياء ورؤاهم الخلاصية حول التعايش المتناغم بين جميع الأمم اهتز حتى النخاع جراء الحرب العالمية الأولى، إذ جعلته فظائع هذه الحرب يفقد ثقته بشكل متزايد بكل المبادئ الرسمية والتنبؤات المتغطرسة حول الانتصارات القومية: «حين انتهت الحرب العالمية الأولى سنة 1918 كنت شاباً شديد الاضطراب، إذ استحوذت عليّ تساؤلات حول كيف كان من الممكن للحرب أن تحصل، وكانت امنيتي أن أفهم لاعقلانية السلوكيات الإنسانية الجماعية مع رغبة عارمة في أن يسود السلام ويتحقق التفاهم العالمي.

كذلك فقد نما في داخلي شك عميق بكل الأيديولوجيات والإعلانات الرسمية، وامتلأ ذهني بقناعة أن «**من بين الجميع على واحد أن يشكك**»[1].

[1]- Cf. E. Fromm, Beyond the Chains of Illusion (1962a), p. 9.

عمقت قراءة فروم لأعمال كارل ماركس من اهتماماته السياسية، فقد رأى فيه المفتاح لفهم التاريخ والتجلي العلماني للنزعة الإنسانية الراديكالية التي عبرت عنها رؤى أنبياء العهد القديم الخلاصية.

إذا أخذنا بالحسبان هذه المشاكل التي شغلت ذهن فروم فإن من الطبيعي بالنسبة إليه أن يبدأ حياته العلمية بدراسة علم النفس والفلسفة وعلم الإجتماع. بعد فصلين دراسيين أمضاهما فروم في جامعة فرانكفورت التحق بجامعة هيدلبرغ سنة 1919 لكي يدرس على اساتذة كبار مثل ماكس فيبر وكارل ياسبرز وهينريخ ريكيرت حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة 1922 بعد كتابته لأطروحة عن البنية الإجتماعية ـ النفسية لثلاثة مجتمعات يهودية في الدياسبورا: اليهود القراؤون، والحاسيديم، واليهود الإصلاحيون. بعد المزيد من الدراسة للطب النفسي وعلم النفس في ميونيخ تزوج فروم من فريدا رايخمان سنة 1926 لكن هذا الزواج لم يستمر طويلاً. من سنة 1928 إلى سنة 1929 تلقى فروم تدريباً في التحليل النفسي من الدكتور لاندوير والدكتور فيتمبرغ في ميونيخ، وفي سنة 1929 أصبح تلميذاً لكل من هانز ساخس وثيودور رايك في معهد التحليل النفسي في برلين. في سنة 1930 أوجد فروم مع آخرين معهد جنوب ألمانيا للتحليل النفسي في فرانكفورت آم ماين وفي السنة نفسها أصبح عضواً في معهد الدراسات الإجتماعية في جامعة فرانكفورت حيث درّس التحليل النفسي. والمعروف ان «مدرسة فرانكفورت» في علم النفس انطلقت من هذا المعهد.

معاناة معهد فرانكفورت

لكن دور فروم المهم كعضو في معهد فرانكفورت للأبحاث الإجتماعية أهمل عمداً بعد أن تركه في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين وخصوصاً من قبل ماكس هوركهايمر. وسيكون تصحيح هذا الإهمال من أعمال البحث التاريخي الهامة. ولقد تردد هوركهايمر في الإعتراف بعضوية فروم لدرجة أنه حين سأله أوسكار هيرش سنة 1969 عن أعضاء المعهد سنة 1930 كانت إجابته: «كان هناك عدد من الناس: علي أن أبدأ بذكر فريدريك بولوك وفرانز بوركيناو وهينريك غروسمان وكارل أوغست فيتفوغل وليو لوفنثال وكارل كورش وغيرهارد ماير وكيرت ماندلبوم. قام غرونبرغ بتوظيف كل هؤلاء ما عدا لوفنثال وكلهم نشروا كتباً في سلسلة منشورات المعهد. كان هناك أيضاً بعض المحللين النفسيين

لكـن ارتباطهـم لم يكـن وثيقـاً عـلى الدرجـة نفسـها. كان كل مـن كارل لاندويـر وهينريـخ منـغ وإريـك فـروم وبعـض الآخريـن مـن أعضـاء هـذه المجموعـة عقـدوا نـدوات دراسـية حـول التحليـل النفـسي ولكـن ليـس في الجامعـة بـل في المعهـد».

مـع ذلـك ليـس مـن الصحيـح أن ارتبـاط فـروم «لم يكـن وثيقـاً لنفـس الدرجـة» ولم يكـن مجـرد واحـد مـن مجموعـة مؤلفـة مـن كثيريـن. في سـنة 1930 كان هوركهايمـر نفسـه قـد دعـاه كخبـير في التحليـل النفـسي ليصبـح واحـداً مـن أربعـة أعضـاء شـكلوا المجموعـة الأساسـية في المعهـد ممـن يفـترض أن يكونـوا زمـلاء مـدى الحيـاة فيـه. قَبِـلَ فـروم وأمـضى السـنوات التاليـة في دراسـة تركيبـة الشـخصية الاسـتبدادية بـين العـمال والموظفـين الألمـان قبـل هتلـر (والـذي نـشر تحـت اسـم «الطبقـة العاملـة في جمهوريـة فيـمار الألمانيـة: دراسـة نفسـية وإجتماعيـة»[1]). قـد يكـون سـبب نسـيان العمـل الأكاديمـي الـذي قـام بـه فـروم في «مدرسـة فرانكفـورت» عائـدا الى المعاملـة الغريبـة للمنشـقين التـي اعتمدهـا أعضـاء المعهـد الذيـن كانـوا مسـؤولين عنـه في ذلـك الوقـت. لكـن الرغبـة في جعـل النـاس ينسـون فـروم وعملـه لا بـد وأن ترتبـط مـع النيـة في التنصـل مـن الأسـاليب الماركسـية واكتشـافات التحليـل النفـسي المتعلقـة بدراسـة البنيـة الاسـتبدادية لشـخصية العـمال والموظفـين الألمـان مـع بـروز الرايـخ الثالـث (النظـام النـازي) وهـذا ينطبـق بشـكل خـاص عـلى هوركهايمـر الـذي توجـد الكثـير مـن المـؤشرات إلى تخليـه عـن المعتقـدات الماركسـية وتوجهـه (ولعـل مـن الأفضـل أن نقـول رجوعـه) إلى قناعـات بورجوازيـة خـلال المرحلـة الاولى مـن إقامتـه في الولايـات المتحـدة. سـبب هـذا التحـول هـو خشـيته مـن أن يصنـف كيسـاري أو ماركـسي في بـلاد لا رواج لهـذه الأفـكار فيهـا. بحسـب فـروم كان هـذا أيضـاً سـبب إبـدال هوركهايمـر لعبـارتي «النظريـة الماركسـية» بــ «النظريـة النقديـة» و «المجتمـع الرأسـمالي» بــ «المجتمـع المنسـلخ».

مـن الأحـداث الهامـة الأخـرى في حيـاة فـروم الثقافيـة قبيـل سـنة 1930 كانـت قراءتـه لكتـاب عـالم الأنثروبولوجيـا يوهـان ياكـوب باخوفـن (1815ـ1887) «حـق الأم» (Mother Right). لقـد أثـرت آراء باخوفـن حـول الرابـط بـين البنـى الإجتماعيـة الأموميـة أو الأبويـة مـن ناحيـة والظواهـر الإجتماعيـة والنفسـية مـن ناحيـة أخـرى في آراء فـروم لجهـة التأثـير المتبـادل بـين البنـى الإجتماعيـة والنفسـية والتـي ذهبـت أبعـد مـما ذهـب إليـه فرويـد.

---

[1]- Cf. Fromm, Arbeiter und Angestellte am Vorabend des Dritten Reiches. Eine sozialpsychologische Untersuchung, 1980a; English edition: The Working Class in Weimar Germany. A Psychological and Sociological Study, London: Berg Publishers, 1984

بـدءاً مـن سـنة 1930 توجهـت أبحـاث فـروم نحـو الجمـع بـين هـذه الآراء والعلـوم المختلفـة كـما قـال: «أردت أن أفهـم القوانـين التـي تحكـم الفـرد الإنسـاني وكذلـك قوانـين المجتمـع، أعنـي قوانـين البـشر في وجودهـم الإجتماعـي. حاولـت أن أرى الحقائـق الثابتـة في مفاهيـم فرويـد مقابـل تلـك الفرضيـات التـي كانـت بحاجـة إلى المراجعـة. وكذلـك حاولـت أن أفعـل ذات الـشيء في نظريـة ماركـس حتـى حاولـت أن أصـل إلى توفيـق مبنـي عـلى فهـم وانتقـاد كل مـن هـؤلاء المفكريـن»[1].

طـوّر فـروم، لهـذا المـشروع، طريقتـه الإجتماعيـة ـ النفسـية الخاصة التـي ـ وبخـلاف فيلهلم رايـخ وهيربـرت ماركيـوزـ لم ترتكـز عـلى نظريـات فرويـد الجنسـية. حـين يقـوم الواحـد منـا بمسـح شـامل لنتـاج فـروم العلمـي والفكـري الهائـل سـيلاحظ أن كل أعمالـه المتأخـرة كانـت شروحـات وتعديـلات ـ حتـى لـو كانـت كبـيرةـ لهـذه السـوابق الفكريـة والروحية والاكتشـافات المنهجية .

زمن النازية.. ارتحال وهجرة

أجـبر بـروز القوميـة الإشـتراكية (النازيـة) معهـد فرانكفـورت للأبحـاث الإجتماعيـة عـلى الهجـرة إلى جنيـف في البدايـة، وبعـد ذلـك إلى جامعـة كولومبيـا في الولايـات المتحـدة سـنة 1934. بعـد مـرض طويـل أقـام فـروم خلالـه في دافـوس، قَبِـلَ دعـوة مـن معهـد شـيكاغو للتحليـل النفـسي لإعطـاء سلسـلة مـن المحـاضرات سـنة 1934، وحـين اسـتقر الأمـر بمعهـد الدراسـات الإجتماعيـة في مقـره الجديـد في نيويـورك التحـق بـه فـروم واسـتمر في عملـه فيـه بينـما ظـل يمـارس التحليـل النفـسي.

تعـرف فـروم في نيويـورك عـلى كل مـن كلارا ثومبسـون وهـاري سـتاك سـوليفان ووليـام سـيلفربرغ، وخـلال الفـترة الممتـدة بـين 1935 و1939 عمـل كبروفيسـور زائـر في جامعـة كولومبيـا، كـما اسـتمر ارتباطـه مـع معهـد الأبحـاث الإجتماعيـة حتـى نهايـة ثلاثينـات القـرن العشريـن حـين قـام كل مـن ماكـس هوركهايمـر وهيربـرت ماركيـوز ضـد تفسـيره للنظريـة الفرويديـة للدوافـع حيـث اتهـماه بالميـل إلى الفرويديـة المحدثـة أو بكونـه فرويـدي محـدث اسـترجاعي. لكـن فـروم اسـتمر في تطويـر أفـكاره ـ التـي وإن كانـت تنطـوي عـلى بعـض سـمات القرابـة مـع أفـكار الأكاديميـين الذيـن سـموا بالفرويديـين المحدثـين أمثـال كاريـن

[1]- **Fromm, Beyond the Chains of Illusion (1962a).**

هـورني وهـاري سـتاك سـوليفان وآبـرام كاردينـر مـن حيـث تركيزهـا عـلى «الثقافـة» ـ لكـن هـذا لم يمنعـه مـن إبعـاد نفسـه عـن هـؤلاء المفكريـن. يقـول فـروم في هـذا الصـدد: «رغـم أننـي أصنـف مـع هـورني وسـوليفان كأحـد الميالـين إلى التحليـل النفـسي عـلى أسـاس الثقافـة، أو كأحـد أعضـاء المدرسـة الفرويديـة المحدثـة إلا أن هـذا التصنيـف لا مـبرر لـه. فبالرغـم مـما يربطنـي بهـما مـن صداقـة شـخصيّة، وعمـلي معهـما ووجـود بعـض وجهـات النظـر المشـتركة بيننـا، وخصوصـاً فيـما يتعلـق بنظريـة «اللبيبيـدو»، إلا أن النقـاط التـي تفـرق بيننـا تزيـد عـلى تلـك التـي تجمعنـا. فهـورني وسـوليفان يفكـران في الأنمـاط الثقافيـة مـن حيـث وجهـة النظـر الأنثروبولوجيـة التقليديـة، أمـا مقاربتـي الشـخصية لهـذا الأمـر فتتجـه إلى تحليـل ديناميـكي للقـوى الاقتصاديـة والسياسـية والنفسـية التـي تشـكل أسـاس المجتمـع»[1].

فروم «الأميركي»

كان سـبب هـذا التحفـظ وخاصـة بالنسـبة لكاريـن هـورني هـو وجـود نزاعـات داخليـة ضمـن حَرَكَـة التحليـل النفـسي في الولايـات المتحـدة خـلال سـنين الحـرب العالميـة الثانيـة، فبينـما عـارض فـروم وهـورني مـع آخريـن سـنة 1941 معهـد التحليـل النفـسي في نيويـورك وسـاهموا مسـاهمات كبـيرة في إنشـاء المعهـد الأمـيركي لتقـدم التحليـل النفـسي، أدت أسـباب شـخصية إلى انفصـال فـروم عـن هـورني سـنة 1943 حيـث أسـس مـع كلارا ثومبسـون وهـاري سـتاك سـوليفان وآخريـن فـرع نيويـورك مـن مدرسـة واشـنطن للطـب النفـسي التـي كانـت تدعمهـا مؤسسـة ويليـام آلانسـون وايـت للطـب النفـسي.

خـلال سـنين الحـرب حـاول فـروم أن يوضـح للجمهـور الأمـيركي النوايـا الحقيقيـة للنظـام القومـي الإشـتراكي. في سـنة 1945 قـام هـو وآخـرون بتأسـيس معهـد ويليـام آلانسـون وايـت للطـب والتحليـل والعلـوم النفسـية حيـث كان مديـر الكليـة ومديـر لجنـة التدريـب في المعهـد بـين سـنتي 1946 و1950. قـام فـروم بالكثـير مـن أعـمال التعليم خـلال أربعينـات القـرن العشرين حيـث كان بروفيسـوراً في علـم النفـس في جامعة متشـيغن بـين 1947 و1947 وبروفيسـوراً زائراً في جامعـة ييـل سـنتي 1948ـ1949. وكذلـك عضـواً في الهيئـة التعليميـة لكليـة بينينغتـون مـن 1941 إلى 1949 وفي سـنة 1949 سـيكون بروفيسـوراً مسـاعداً للتحليـل النفـسي في جامعـة نيويـورك.

---

[1]- E. Fromm, The Crisis of Psychoanalysis (1970a), p. 21, fn.; cf. Fromm, The Heart of Man (1964a), p. 14; and Fromm and Evans, Dialogue with Erich Fromm (1966f), pp. 58f.

تـزوج فـروم للمـرة الثانيـة سـنة 1944 وأصبـح مواطنـاً أميركيّـاً. وبنـاء عـلى نصيحـة أسـداها لـه طبيـب يعالـج زوجتـه المريضـة بأنهـا قـد تسـتفيد مـن الطقـس الأفضـل في المكسـيك إنتقل فـروم مـن بينينغتـون إلى عاصمـة المكسـيك ـ مدينـة ميكسـيكو ـ ليعمـل كاسـتاذ في الجامعـة الوطنيـة المسـتقلة في المكسـيك، حيـث أسـس فـرع التحليـل النفسـي في كليـة الطـب التابعـة للجامعـة. درَّس فـروم في تلـك الجامعـة حتـى سـنة 1965 حيـث أصبـح بروفيسـوراً فخريّـاً. بالإضافـة لمهـمات فـروم التعليميـة في المكسـيك ظـل يتابـع مسـؤولياته في معهـد ويليـام آلانسـون وايـت كـما شـغل منصـب بروفيسـور علـم النفـس في جامعـة ميتشـيغن بـين 1975 1691 و1975 وكذلـك بروفيسـوراً مسـاعداً لعلـم النفـس في جامعـة نيويـورك بعـد سـنة 1962. بالرغـم مـن نشـاطات فـروم التعليميـة المكثفـة إلا أنـه ظـل يمـارس التحليـل النفـسي لأكـثر مـن 54 سـنة، مـع نشـاطه كمـشرف ومعلـم للتحليـل النفـسي فضـلاً عـن مشـاركته في العمـل الميـداني في مجـال علـم النفـس الإجتماعـي عـلى مـدى فـترة اقامتـه في المكسـيك.

اهتـم فـروم بشـغف بالسياسـة منـذ طفولتـه، وفي منتصـف خمسـينيات القرن العشريـن انضم إلى الحـزب الإشـتراكي الأمـيركي وحـاول (دون جـدوى كـما تبـين لاحقـاً) أن يقـدم لـه برنامجـاً جديـداً بالرغـم مـن اعترافـه بأنـه وبطبيعتـه غـير مؤهـل للعمـل السـياسي إلا أنـه قـام بالكثـير لتنويـر الشـعب الأمـيركي حـول إمكانيـات ونوايـا الإتحـاد السـوفييتي ونواياه، في حينـه لاقـت جهـوده أفضـل تعبـير عنهـا في «هـل ينتـصر الإنسـان؟ بحـث في الحقائـق والأوهـام المتعلقـة بالسياسـة الخارجيـة» (May Man Prevail? An Inquiry into the Facts and Fictions of Foreign Policy) (1691) والـذي كشـف فيـه فـروم أن الخـوف مـن العـدوان الـروسي لا يعـدو كونـه وهـماً مـن خـلال تحليـل البنيـة الاجتماعيـة الشـيوعية في ذلـك الوقـت، وحتـى في سـنة 1974 قـام فـروم بنـاء عـلى اقـتراح مـن السـيناتور ويليـام فولبرايـت بكتابـة مقـال عـن سياسـة الانفـراج الـدولي (détente) لتقـرأ في اسـتجواب عقدتـه لجنـة العلاقـات الخارجيـة التابعـة لمجلـس الشـيوخ الأمـيركي حـول العلاقـات الأميركيـة مـع الـدول الشـيوعية.

درَّس فـروم نوعـاً مـن الفلسـفة الإنسـانية الاشـتراكية التـي ترفـض كلاًّ مـن الرأسـمالية الغربيـة واشـتراكية الإتحـاد السـوفييتي الشـيوعية وتتعاطـف مـع تفسـير مجموعة «البراكسـيس» اليوغوسـلافية للاشـتراكية. كـما كان اهتمامـه السـياسي الأكـبر بحركة السـلام الدوليـة حيث كان الدافـع الأسـاسي لهـذا الاهتـمام وجهـة النظـر القائلـة بأنـه وفي إطـار الحالـة الدوليـة الراهنـة سـيقرر مـا إذا كانـت البشريـة سـتتبع الطريـق العقـلاني وتمسـك بحبـال مصيرهـا أو سـتدمر

نفسها في أتون حرب نووية شاملة. كان فروم من مؤسسي حركة سين (SANE) ـ والتي تعني حرفيّاً: عاقل ـ التي كانت أهم حركة سلام أميركية حيث لم تعارض هذه الحركة سباق التسلح النووي فحسب، بل والحرب في فيتنام أيضاً. كان آخر نشاط سياسي هام قام به فروم هو عمله للسيناتور يوجين مكارثي خلال حملته ليصبح مرشح الحزب الديموقراطي في الانتخابات الرئاسية التي عقدت في تلك السنة.

فروم أديباً وعالماً

بعد 1965 ركز فروم أكثر وأكثر على كتاباته وبدءاً من سنة 1968 بدأ يمضي أشهر الصيف في مناخ منطقة تيسين (سويسرا) الشديد الاعتدال قبل أن ينتقل إليها بشكل نهائي سنة 1974، حيث استقر هو وزوجته أنيس في مدينة مورالتو بعيداً عن الوتيرة المحمومة للحياة العصرية حتى توفي في 18 آذار 1980. لكن الوحدة والتقاعد على بحيرة ماجيوري لم يقلّل من اهتمام فروم بالمشاكل المعاصرة كما يظهر جليّاً من نتاجه الأدبي في السنوات الأخيرة من حياته. حين نستعرض آثار فروم لا يمكننا إلا أن نلاحظ تنوع وسعة مجالات اهتماماته وأبحاثه، فأطروحة الدكتوراه ذات التوجه الإجتماعي التي كتبها في الثانية والعشرين من عمره تبحث في «العلاقة المتبادلة بين البنية الإجتماعية والفكرة (الدينية) الموضوعة في عهدتها»[1] بين يهود الدياسبورا، كما يظهر فروم في مجموعة مقالات أقصر كتبها بين سنتي 1926 و1930 كفرويدي تقليدي محض بينما تظهر مقالة كتبها سنة 1930 تحت عنوان «تطور عقيدة المسيح: دراسة نفسية تحليلية في الوظيفة الإجتماعية ـ النفسية للدين» (The development of the Dogma of Christ. A psychoanalytical study on the sociopsychological function of religion) اهتمامه بعلاقة الدين والفكرة الدينية مع الوقائع الإجتماعية والحضارية، وتمثل أول مثال على أسلوب فروم الخاص في التحليل الاجتماعي ـ النفسي لهذه الظواهر وتختلف عن كل من نظرية البناء الفوقي الماركسية الجلفة كما تختلف عن التحليل الثقافي النفساني المبني على آراء فرويد.

خلال مقالاته التالية شرح فروم طريقة «علم النفس التحليلي الاجتماعي» التي يلعب فيها «الفهم لأهمية نظريات باخوفن وبريفوت حول الأمومية دوراً هامّاً كما يمثل استقصاء السلطة والعائلة التي تستخدم هذه الطريقة الاجتماعية ـ النفسية نوعاً من الاختبار لها»[2].

[1]- **E. Fromm, Das jüdische Gesetz (1989b), p. 237.**

[2]- **Cf. E. Fromm, „Sozialpsychologischer Teil" (1936a).**

بعد عدة سنين لم يكتب خلالها فروم أي شيء عاد لينشر أول كتاب متخصص في علم النفس الإجتماعي: «الهروب من الحرية» (Escape from Freedom) سنة 1941، وبناء على تحليل للعلاقة بين البروتستنتية وبداية تطور الرأسمالية يظهر هذا العمل عجز الإنسان المعاصر عن تقدير «حريته من شيء ما» كـ «حرية لفعل شيء ما»، بدلاً من ذلك وكما يكتب فروم يحاول الإنسان المعاصر أن يهرب من الحرية ليضع نفسه تحت علاقات اتكال إستبدادية، وخلال هذه العملية يتحول إلى إنسان تدميري وانصياعي. كان لآراء هذا الكتاب حول الوضع في ألمانيا النازية تأثير عميق على الجمهور الأميركي مع أن تفسير فروم الاجتماعي لحركة الإصلاح الديني (البروتستنتية) أدى إلى انتقادات حادة من البعض.

تلا هذا العملُ سنواتٍ من الجهود المكثفة لتوضيح الروابط بين البنى الإجتماعية ـ الإقتصادية من ناحية والحاجات الإنسانية كضرورات نفسية في توجيه الاستيعاب والتنشئة الإجتماعيين من ناحية أخرى. طور فروم في جهده هذا دراسة لخصائص الشخصية توسع مجال نظرية الليبيدو الفرويدية والصورة الضيقة التي ترسمها للإنسان بينما تشير في نفس الوقت إلى الأهمية الأخلاقية لمختلف توجهات الشخصية. وجدت نتائج هذا البحث تعبيرها في ما يمكن أن يعتبر عمل فروم المركزي: «الإنسان لنفسه ـ بحث في علم نفس الأخلاق» (Man for Himself ـ An Inquiry into the Psychology of Ethics).

اطروحة «المجتمع العاقل»

طور كتاب «المجتمع العاقل» (The Sane Society) الذي نشر سنه 1955 المواضيع التي رأيناها في «الهروب من الحرية» و«الإنسان لنفسه»، كتب فروم هذا الكتاب من وجهة نظر أخلاقية إنسانية، مشيراً إلى الأسباب الاجتماعية ـ الاقتصادية التي تمنع اليوم من تحقيق ما أسماه بـ «المشروع الإنساني»، فكشف من خلال تحليله للبنى الاجتماعية للرأسمالية والبيروقراطية الحديثة عن ظاهرة الاغتراب الكونية وأنه لا يمكن التغلب عليها إلا إذا تغيرت الظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية من أساسها باتجاه اشتراكية ديموقراطية وإنسانية.

بالإضافة الى هذه الأعمال الثلاثة مع وفرة الملاحظات والإكتشافات التي احتوت عليها، كتب فروم عدداً من الكتب المتخصصة خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين اتضحت من خلالها آفاق فكره أكثر وأكثر. ففي سنة 1950 نشر كتاباً أقل

حجـماً بعـض الـشيء مـن سـابقيه، انـه كتـاب «التحليـل النفـسي والديـن» (Psychoanalysis and Religion) الـذي ناقـش فيـه بتفصيـل أكـبر فهمـه للديـن الإنسـاني كديـن متأثـر بالتحليـل النفـسي والفلسـفة البوذيـة. أمـا كتابـه «اللغـة المنسـية» (The Forgotten Language) المتعلـق بالقصـص الخرافيـة والأسـاطير والأحـلام كظاهـرة عامـة وكاشـفة في الوجـود الإنسـاني فقـد ظهـر في السـنة التاليـة. أمـا كتـاب فـروم الأكـثر مبيعـاً فقـد كان «فـن المحبـة» (The Art of Loving) الـذي نـشر للمـرة الأولى سـنة 1965 والـذي ترجـم إلى 82 لغـة وبيـع منـه أكـثر مـن مليـون ونصـف المليـون نسـخة باللغـة الإنجليزيـة وحدهـا مـع حلـول سـنة 1970، مـن خـلال اسـتخدام مفهـوم «الحـب المنتـج» أظهـر فـروم في كتابـه هـذا نتائـج الأخلاقيـات الإنسـانية لفهـم محبـة الإنسـان لنفسـه ومحبتـه لجـاره، ومحبتـه للبشريـة عـلى العمـوم.

أظهـر فـروم احترامـه لـكل مـن فرويـد وماركـس في ثلاثـة كتـب أخـرى، ولكنـه حـاول في الوقـت نفسـه أن يبـيّن فيهـا موقفـه مـن هذيـن المفكِّريْـن الأصيليْـن في عـصر الحداثـة، كان لكتابـه «مفهـوم الانسـان عنـد ماركـس» (Marx's Concept of Man) أهميـة خاصـة لأنـه لفـت انتبـاه الجمهـور الأمـيركي إلى كتابـات ماركـس المبكـرة.

أمـا أهميـة الديـن في الوجـود الإنسـاني الناجـح ومسـتقبل الإنسـان فقـد أوضحـه فـروم في عملـين: الأول هـو مقالـة بعنـوان «التحليـل النفسـية وبوذيـة زن» (Psychoanalysis and Zen-Buddhism) وقـد عكسـت دراسـة فـروم لهـذه الفلسـفة الشرقيـة. أمـا العمـل الثـاني فقـد جـاء تحـت عنـوان: «سـتكونون مثـل الآلهـة» (You Shall Be as Gods) وهـو «تفسـير راديـكالي للعهـد القديـم وتراثـه» نـادى فيهـا لديـن بـدون تصـور للألوهيـة. لقـد طـوّر وجهـة نظـر تاريخيـة ـ فلسـفية تـرى في روايـة العهـد القديـم لعلاقـة الإلـه بالإنسـان أنهـا عمليـة يقـترب فيهـا الإنسـان بشـكل متزايـد مـن نفسـه وهكـذا تصبـح فكـرة الإلـه متطابقـة مـع «كون الإنسـان في حقيقتـه مـع نفسـه»، والاعتقـاد في الألوهيـة كـما يبينهـا الوحـي مرحلـة مـن مراحـل الطريـق نحـو «ديـن إنسـاني» يتطـور في نفسـه وعـبر نفسـه.

بعـد ذلـك ركـز فـروم عـلى مشـكلتين: الأولى هـي السـؤال الحاسـم تاريخيّـاً عـما إذا كان الإنسـان سـيرجع إلى كونـه سـيداً عـلى مـا صنعـه أم سـيهلك في عـالم تقنـي يتحـرك بشـكل مفـرط. فقـد عالـج هـذا السـؤال في كتاباتـه السياسـية خصوصـاً حـول عـن التسـليح النـووي

وحركة السلام وفي كتابه «ثورة الأمل: نحو تكنولوجيا مؤنسنة» (Revolution of Hope: Toward a Humanized Technology) (نيويورك: 1958) وهو العمل الذي اعتبر استكمالاً لكتاب «المجتمع العاقل». المشكلة الثانية التي تعامل معها فروم كانت ظاهرة اضمحلال الإنسان كفرد وكنوع. من خلال استخدام بعض أنواع الحياة غير المنتجة التي شرحها من قبل خاصة في كتابه «الإنسان لنفسه» مثَّل كتابه «قلب الإنسان: عبقريته في الخير والشر» (Heart of Man: Its Genius for Good and Evil) معالجة منهجية للتناقض بين الغريزة والشخصية. كان موضوع الغريزة التدميرية المتأصلة في الإنسان التي عاملها علم النفس السلوكي على أنها من المسلمات بالإضافة للشك الذي بثته هذه النزعة حول إمكانية الخير في الإنسان (خاصة أن هذا الشك يزعزع مبادئ النزعة الإنسانية من أساسها) هو موضع اهتمام فروم بحيث خصص السنين الخمس التالية للبحث فيه وكانت نتيجة عمله في تلك الحقبة هي ما لخصه في كتابه «تشريح التدميرية الإنسانية» (The Anatomy of Human Destructiveness).

كان آخر عمل كبير نشره فروم هو «أن أتملك أو أن أكون؟» (To Have or to Be?) وهو محاولة في تجميع آرائه في علم النفس الإجتماعي والدين الإنساني والأخلاق. يتعرف فروم على توجهين متناقضين في الوجود الإنساني: التملك والكينونة، ويربط بين آرائه الكثيرة حول نفسية الفرد ونفسية المجتمع مع تقاليد الدين الإنساني وشخصيات تاريخية هامة.

كثيراً ما أُنتقد فروم لكونه «تخمينيّاً» بشكل مفرط، وكذلك لعدم تقديمه القدر الكافي من البيانات العلمية. ينبع جزء من هذا الانتقاد من نزوع فروم في بعض الأحيان إلى عدم الإشارة إلى مراجعه وعدم تبيانه الكافي لما تقوله التيارات الفكرية البارزة عن المشاكل المحددة التي يناقشها، لكن لغته الواضحة وغير المعقدة لا تفتقر العمق الفكري سواء أفي طريقة صياغة المشاكل أم في تقديم الآراء، وهذا ما جعله موضع شك بين بعض الداوئر الأكاديمية. مع ذلك ليس لدينا أي سبب لعدم تصديق فروم حين يقول: «لا يوجد استنتاج نظري واحد عن نفسية الإنسان ـ سواء في كتابي هذا أم في أي من كتاباتي الأخرى ـ لم أبنه على الملاحظات النقدية للسلوك البشري التي بنيتها خلال عملي هذا في التحليل النفسي»[1].

[1]- E. Fromm. Beyond the Chains of Illusion (1962a), p. 10.

ينطبق الشيء ذاته على بنى الشخصية التي ساعدت طريقته في علم النفس الاجتماعي على صياغتها: إن دراسته «الشخصية الاجتماعية في قرية مكسيكية» (Social Character in a Mexican Village) والمبنية على عمل ميداني استمر لخمس سنوات مقتعة للغاية للتلاقي الكبير بين اكتشافاته ونظرياته. فإذن لم يكن سبب اتهامه بالتخمينية غير العلمية افتقاده للأبحاث الدقيقة، ولكن كان السبب الحقيقي لهذه الهجمات هو صراع فروم مع الميول الوضعية التي لا تقبل بأي شيء إلا بوجهات نظر يمكن إظهارها بدقة وموضوعية، ومحصورة في فرع علمي واحد ومحدد. لكن فروم كان يعتقد أن العمل العلمي المسؤول لا يمكنه أن يهمل حدود نشاطاته، أو أن يرفض أن يتآلف مع آراء أخرى من فروع علمية مختلفة. كما لا يمكن له أن يظل حيادياً أمام الأهمية الأخلاقية لما اكتشفه، ولذلك يتطلب العلم إطاراً توجيهيّاً لا يمكن استثناؤه آخر المطاف من آراء أي من الفروع العلمية الإنسانية.